المقـــدمـــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه. وبعد .

فهذه الدراسة بعنوان التفكير اللساني عند علماء أصول النحو، وهي تأتي في إطار اهتمام الباحث بالتراث اللغوي، وبما يشكِّل من هذا التراث أهمية كبيرة: أصول النحو، من حيث مدى انتظامه لجوانب العربية، ومدى شموله لظواهر اللغة. فقد نظر علماء أصول النحو في أصوات اللغة، وفي صيغها، وتراكيبها، كما نظروا في مفرداتها، ومعاني هذه المفردات فاستنبطوا القواعد والقوانين من الأدلة الإجمالية، وهي: النقل والقياس والإجماع واستصحاب الحال، وخلفوا لنا في هذا الشأن تراثا يستأهل التقدير والثناء .

ولم يكن منهج هؤلاء العلماء قائما على مجرد الوصف لنظام اللغة العربية بل تجاوز ذلك إلى التفسير والتعليل لظواهر العربية وقواعدها سواء أكانت هذه القواعد تمثل أنماطا يجب اتباعها أم مجرد استعراض غير معياري لأنماط استعمالاتها في فترة تاريخية معينة .

وقد آثرت كما ينطق عنوان هذه الدراسة استخدام مصطلح اللساني نعتا للتفكير بدلا من مصطلح اللغوي لعدة أسباب، منها أن " كلمة لغة لم تكن تستخدم في الاستعمال القديم بمعناها المعروف الآن، وإنما كانت تستخدم بمعنى اللهجة، ولم ترد كلمة "لغة" في القرآن الكريم إطلاقا، وإنما وردت كلمة لسان للدلالة على جملة معان منها:

١. آلة الكلام: قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ ﴾ (١) .
٢. اللغة، بمعنى رصيد الكلمات والقواعد الذي تملكه الجماعات اللغوية، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ (٢) .
٣. الكلام، بمعنى الاستعمال الفردي للغة، قال تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَم ﴾ (٣) .
٤. الأسلوب، بمعنى الخاصّة الفردية للمتكلم، قال تعالى: ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً ﴾ (٤) .

ومعنى هذا أن كلمة لسان أكثر شمولية واستيعابا" (٥) .

---

(١) سورة البلد : آية (٩) .

(٢) سورة إبراهيم : آية (٤) .

(٣) سورة المائدة : آية (٧٨) .

(٤) سورة القصص : آية (٣٤) .

(٥) المصطلح الألسني وضبط المنهجية ، د . أحمد مختار عمر ، ص ٧ ، عالم الفكر ، المجلد العشرون ، العدد الثالث ، ١٩٨٩م .

يضاف إلى ذلك أن كلمة "لسان ترجع إلى أقدم اللغات السامية، هي من المعجم الأساسي المشترك، في اللغات السامية، حملتها الهجرة الأكادية معها، فهي أقدم من منتصف الألف الثالث قبل الميلاد "، "أما كلمة لغة فترجع إلى أصل يوناني؛ إنها من الكلمة اليونانية Logos، ومعناها: كلمة، كلام، لغة، وقد دخلت الكلمة العربية في وقت مبكر" (١) .

وقد تردد استخدام كلمة لسان في الحضارة العربية على الدراسات اللغوية منذ وقت مبكر، فقد أطلق الفارابي في كتابه إحصاء العلوم على كل العلوم اللغوية اسما شاملا هو "علم اللسان"، وأطلق أبوحيان النحوي مصطلح "علوم اللسان العربي" على علوم اللغة، وقد تابعه ابن خلدون في استخدام هذا المصطلح (٢).

يضاف إلى ما سبق أن استخدام مصطلح Linguistics في بحوث المحدثين ودراساتهم في عالمنا العربي تحت عناوين مثل علم اللغة والبحث اللغوي والدرس اللغوي وفقه اللغة والألسنية وعلم اللسان وعلم اللسانيات وفقه اللغة وغير ذلك ما قد يشعر بالخلط وفوضى المصطلح (٣) .

وقد دعا ذلك الجامعة التونسية إلى تنظيم ندوة سنة ١٩٧٨ تحت عنوان "الألسنية واللغة العربية"، وأجمع المشاركون في هذه الندوة على أن أيسر المصطلحات المتداولة في البلدان العربية، وأقربها إلى روح اللغة العربية هو مصطلح اللسانيات (٤) .

وقد اختار الباحث من المصادر التي تتعلق بعلم أصول النحو الخصائص لابن جني مصدرا أساسيا لهذه الدراسة؛ ذلك أنه يمثل أهم ركائز هذا العلم لِمَا يتضمنه من مادة ثريَّة تتعلق بالسماع والرواية وكيفية أخذ اللغة، وطرق تحمُّل العلم بها، والقياس والتعليل لقواعد اللغة، وغير ذلك مما يتصل بالبحث الأبيستمولوجي للغة، وقد أبان ابن جني عن الغرض من كتابه بقوله: " وليكون هذا الكتاب ذاهبا في جهات النظر إذ ليس غرضنا فيه الرفع والنصب والجر والجزم؛ لأن هذا أمر قد فُرِغَ منه في أكثر الكتب المصنَّفة فيه منه، وإنما هذا الكتاب مبنيٌّ على إثارة معادن المعاني وتقرير حال الأوضاع والمبادي، وكيف سرت أحكامها في الأحناء والحواشي " (٥) .

---

(١) انظر : علم اللغة العربية ، د . محمود فهمي حجازي ، ص ٣١١ ، ٣١٢ .

(٢) السابق ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٣) ورد مصطلح علم اللغة مثلا في دراسة بعنوان: علم اللغة: مقدمة للقارىء العربي، د. محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، د. ت، وورد مصطلح البحث اللغوي في دراسة بعنوان: البحث اللغوي عند العرب، د. أحمد مختار عمر ، عالم الكتب، الطبعة الثامنة، ٢٠٠٣م ، وجاء ذكر مصطلح الدرس اللغوي في دراسة بعنوان: ابن القيم الجوزية: جهوده في الدرس اللغوي، د. طاهرسليمان حمودة، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية ١٩٧٦م، وجاء ذكر مصطلح اللسانيات في دراسة بعنوان: اللسانيات وأسسها المعرفية، د. عبد السلام المسدي، المطبعة العربية، تونس، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، وجاء ذكر مصطلح الألسنية في بحث بعنوان: المصطلح الألسني وضبط المنهجية، للدكتور أحمد مختار عمر، عالم الفكر، مجلد ٢٠، عدد ٣ الكويت ١٩٨٩م، وترجم د. محمد مندور بحثا لأنطوان ماييه تحت اسم علم اللسان، ونشره عام ١٩٤٦م، كفصل في كتاب منهج البحث في اللغة والأدب، وجاء ذكر مصطلح فقه اللغة مرادفا لعلم اللغة في دراسة بعنوان: فقه اللغة وخصائص العربية: دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية، للأستاذ محمد المبارك، وصدر عام ١٩٦٠م .

(٤) انظر : الأصول ، د . تمام حسان ، ص ٢٦٦ ، هامش رقم (١) .

(٥) الخصائص ١ / ٣٣ .

ويُعَدُّ الخصائص أيضا كتابا شاملا يدرس الخصائص الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية للغة، وهو بذلك يصل اللغة بالفكر، ويعالج قضايا المبنى والمعني، وهذه الخصائص هي التي تهدف إليها المناهج والنظريات اللسانية الحديثة .

وإلى جانب الخصائص ستعتمد الدراسة أيضا على مصادرعلم أصول النحو الأخرى، ولا سيما المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي؛ وذلك لأنه قد حوي أيضا الكثير من مباحث علم أصول النحو ممّا نقله السيوطي عن سابقيه مرتَّبا ومبَّوبا أحسن تبويب ممّا يعين على فهم ما التبس على الباحث من قضايا تتعلَّق بعلم أصول النحو، "منها ما يرجع إلى اللغة من حيث الإسناد كحديثه عن معرفة الصحيح الثابت، ومعرفة ما روي من اللغــة ولم يصح ولم يثبت، ومعرفة من تقبل روايته ومن تُرَدّ، ... ومنها ما يرجع إلى اللغة من حيث الألفاظ كحديثه عن معرفة الفصيح والمطَّرد والشاذ، ومعرفة الألفاظ الإسلامية، ... ومنها ما يرجع إلى اللغة من حيث المعنى، كمعرفة خصائص اللغة في ظواهر الاشتقاق والحقيقة والمجاز والتضاد والترادف والإبدال والقلب، وغيرذلك" (١) .

أمّا عن الدراسات التي سبقت هذه الدراسة فلم يصل إلى عِلمي أن أحدا من الدارسين أفرد بحثا يتناول التفكير اللساني عند علماء أصول النحو، ولكن لا شك في أن هناك دراسات تعرّضت للأساس النظري الذي اعتمده النحاة في بناء الأصول كدراسة العالم الدكتور تمام حسان: الأصول دراسة ابيستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب ، ودراسة العالم الدكتور علي أبو المكارم: أصول التفكير النحوي .

ومن الدراسات التي تتصل بموضوع الدراسة تأتي دراسة الباحث محمد إبراهيم محمد حسين: "أصول النحو في خصائص ابن جني"، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م، وقد درس فيها الباحث موضوعه في مقدمة ومدخل وخمسة فصول وخاتمة، فخصَّ الفصل الأول للسماع، والثاني للإجماع، والثالث للقياس والاستحسان واستصحاب الحال، والرابع للتعارض والترجيح، أمَّا الفصل الخامس فقد عقده لتقييم ما قدّمه ابن جني في هذا العلم، متَّبعا في ذلك المنهج الوصفي التاريخي .

وعلى هذا النحو أيضا تأتي دراسة الباحث عصام عيد فهمي عثمان: "أصول النحو عند السيوطي بين النظرية والتطبيق"، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ٢٠٠٠م .

فهذه الأبحاث وإن تعلَّقت بقضايا السماع والقياس والإجماع، . . .إلخ إلا أنها قلّصت – في رأيي– مفهوم علم أصول النحو، وجعلته مقتصرا على أدلة النحو ومصادر التقعيد دون التطّرق إلى الجانب الثاني ممّا هو من مجال الأصول أيضا، والذي يتعلق بالبحث عن خصائص النظام اللغوي أصواتا وصرفا وتراكيب ثم دلالة .

---

(١) انظر : مصادر جلال الدين السيوطي في كتابه المزهر ، د . رمضان عبد التواب ، ص ١٠٨ ، ١٠٩، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج٥٧ ، صفر ١٤٠٦هـ – ١٩٨٥م.

ذلك أن "ما أصطُلِح على تسميته بأصول النحو نوعان: فمنها ما يتمثل في قضايا منهجية تتعلق بكيفية أخذ اللغة، ودور كل من السماع والقياس فيه لتفسير معطياتها، ومنها ما يتمثل في خصائص نظامها أصواتا وكلمات وتراكيب" (١) .

"فأصول النحو أو إن شئت ثوابت النحو قد عُرِفت عند النحاة بالأصول الثابتة، إذ جعلوها في مقابل المتغيِّرات التي عرفها اللغويون باسم "اللغة" أو"المتن"، وامتدّت فكرة الأصول الثابتة على فروع الدراسات المتَّصلة بالتقعيد جميعا سواء من ذلك الدراسات الصوتية والدراسات الصرفية والدراسات النحوية، ففي الأصوات أصل المخرج وأصل الصفة (من شدة ورخاوة وجهر وهمس إلخ)، وأصل الإفراد والتشديد، وأصل الطول والقصر، وأصل الصحة والعلة، ... وفي الصرف أصل الاشتقاق والجمود، وأصل التَّجرد، وأصل الاسمية أو الفعلية أو الحرفية، ... وفي النحو أصل الإظهار أوالإضمار، وأصل الذكر أو الحذف أو الزيادة، وأصل الفصل أو الوصل، وأصل التقديم والتأخير، ..." (٢) .

وهناك نوع أخير من الدراسات التي تعرَّضت لفكر ابن جني اللغوي وجهوده في مستويات اللغة، ومن ذلك:

١- ابن جني النحوي للدكتور فاضل صالح السامرائي، رسالة ماجستير، طبعت في دار النذير ببغداد سنة ١٩٦٩ م .

٢- الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني للدكتور حسام النعيمي، رسالة دكتوراه، نشرتها وزارة الثقافة في العراق سنة ١٩٨٠ م .

٣- الدرس الدلالي في خصائص ابن جني، للدكتور أحمد سليمان ياقوت، دارالمعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٦ م .

٤- دراسات نحوية في خصائص ابن جني، للدكتور أحمد سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٨ م .

فهذه الأبحاث والدراسات التي تناولت السمات العامة لفكر ابن جني اللغوي في أحد مستويات اللغة، وإن تعلَّق بعضها بدراسة عصر ابن جني وثقافته وآثاره ودراساته وموقفه من الشواهد وجهوده في أصول النحو وأثر المنطق والقياس والفقه والعامل في دراسته النحوية وغير ذلك، مما يكشف معالم علم أصول النحو ويحدِّد أبعاده، إلا أنها تقيدت بمستوى لغوي واحد، لم تتجاوزه، كما أنها لم تكشف عن مساهمته في بلورة هذا العلم، وإبراز منطلقاته وقواعده وفرضياته، وما كان لذلك من نتائج في وصف اللغة العربية وتقعيدها وتفسيرها وضبط نظامها والسعي إلى تفسيرالملكة اللغوية لدى المتكلم الفطري للعربية، فضلا عن تقييم ذلك في ضوء المناهج والنظريات الحديثة

---

(١) انظر : من الكلمة إلى الجملة ، د . عبد القادر المهيري ، ص ١٢ .

(٢) انظر : أصول النحو وأصول النحاة ، د . تمام حسان ، ص ٧٢ ، ٧٣ ، المناهل، العدد العاشر، وزارة الدولة المكلفة بالشئون الثقافية، الرباط – المغرب، ذو الحجَّة ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م .

كالمنهج الوصفي والمنهج التوليدي التحويلي ونظرية السياق، وغير ذلك ممّا تهدف إليه هذه الدراسة .

وبناء على ذلك فإن منهج الباحث يكمن في استقراء المادة اللغوية موضوع البحث سواء تلك المتعلقة بأصول النحو أو المتعلقة بخصائص النظام اللغوي من أصوات وصرف وتركيب ودلالة، وذلك من خلال التقسيم والملاحظة والوصف والتفسير، ثم تناولها بالدراسة في ضوء منهج تكاملي يستفيد بما تقدمه النظريات اللسانية الحديثة دون الانسياق وراء وميضها أو الاستسلام التام لمعطياتها، حتى يخرج البحث ببعض النتائج المفيدة المعتمدة على تكامل هذه المناهج بالإضافة إلى دراسات القدماء .

وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن توزَّع على النحو التالي:

المقدمة : وفيها بيان عن طبيعة الموضوع وأهدافه وسبب اختياره .

التمهيد : وتناولت فيه معنى الأصول في اللغة والاصطلاح، وأهم مصادر علم أصول النحو، ثم أتبعت ذلك بأصول النحو، وهي: السماع والقياس والإجماع واستصحاب الحال .

الفصل الأول : التفكير الصوتي عند علماء أصول النحو ، وقد جاء في ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الصوامت والصوائت، وتناولت فيه الهمس والجهر والشدة والرخاوة، والعلاقة بين حروف المد والحركات، وموقع الحركة من الحرف .

المبحث الثاني : التغييرات الصوتية، وتناولت فيه التغييرات الصوتية التطورية، ومن ذلك ما يطرأ على صوت الهمزة من تحقيق وتخفيف، والإبدال بين الصوامت ثم أتبعت ذلك بالتغييرات الصوتية التركيبية، فتناولت من ذلك (المماثلة والإدغام والمخالفة والقلب المكاني) .

المبحث الثالث : الفصاحة والأداء الصوتي: وتناولت فيه الأداء الصوتي ثم أتبعت ذلك بالنبر فالتنغيم .

الفصل الثاني : التفكير الصرفي عند علماء أصول النحو، وقد جاء في خمسة مباحث :

المبحث الأول : الفعل الثلاثي المجرّد ومحاولات ضبطه، وتناولت فيه باب فعُل، وباب فعِل وباب فعَل .

المبحث الثاني : بنية الفعل المزيد (الشكل والمعنى) وتناولت فيه الزيادة للإلحاق والزيادة لإفادة معنى .

المبحث الثالث : التصحيح والإعلال، وتناولت فيه بعض صور الإعلال بالقلب كقلب الياء واوا، وقلب الواو ياء، وقلب الواو والألف ياء، كما تناولت الإعلال بالنقل والاعلال بالحذف وبعض صور تصحيح الواو والياء ، وبعض ضوابط التأويل أو الرد إلى الأصل

المبحث الرابـــع : التوهّم في التصريف

المبحث الخامس : التذكير والتأنيث، وتناولت فيه أصالة التذكير والتأنيث، وما يستوي فيه المذكر والمؤنث، والتردد بين التذكير والتأنيث .

الفصل الثالث : التفكير التركيبي عند علماء أصول النحو ، وقد جاء في أربعة مباحث :

المبحث الأول : ظاهرة الحذف، وتناولت فيه الحذف والسياق، والحذف وعلاقته بالأصل والفرع .

المبحث الثاني : ظاهرة إعادة الترتيب، وتناولت فيه بعض ضوابط إعادة الترتيب، والترتيب والدلالة، ثم الفصل بين المتلازمين .

المبحث الثالث : ظاهرة الزيادة، وتناولت فيه تعريف الزيادة وأقسامها، وزيادة الحروف وعلاقتها بالدلالة من خلال زيادة الباء، وزيادة مِن، وزيادة إنْ، وزيادة لا، وزيادة ما، وغير ذلك .

المبحث الرابع : التضمين والإنابة: وتناولت فيه معنى التضمين في اللغة والاصطلاح، والتضمين في الأفعال والحروف، والإنابة في الأسماء، والإنابة بين الجملة والمفرد .

الفصل الرابع : التفكير الدلالي عند علماء أصول النحو ، وقد جاء في ستة مباحث :

المبحث الأول : العلاقة بين اللفظ والمعنى، وتناولت فيه اللفظ والمعنى عند ابن جني، وعلاقة اللفظ والمعنى بفكرة الوضع .

المبحث الثاني : نظرية السياق، وتناولت فيه سياق الحال عند ابن جني والسيوطي من خلال بعض الإجراءات والمتغيَّرات، كالسياق الثقافي، وملابسات الموقف، ومكمِّلات الكلام، ثم أتبعت ذلك بتناول العلاقة بين السياق والدلالة فالكفاءة التواصلية .

المبحث الثالث : المجـــاز، وتناولت فيه المجاز في تفكيرابن جني، وموقف العلماء من ظاهرة المجاز، والمجاز وفاعلية المعنى النحوي الدلالي .

المبحث الرابع : عوامل التغيُّر الدلالي، وتناولت فيه عوامل التغيُّر الدلالي، وأعراض التغيُّر الدلالي، ثم تحسين اللفظ .

المبحث الخامس : فكرة الحقول الدلالية، وتناولت فيه مفهوم الحقول الدلالية عند الغربيين، وفكرة الحقول الدلالية عند ابن جني، ثم فكرة الحقول الدلالية عند السيوطي .

المبحث السادس : التعدد الدلالي، وتناولت فيه المشترك اللفظي، من خلال التعريف به عند الأصوليين واللغويين، وموقف علماء اللغة منه، والاشتراك وتعدد المعنى عند الغربيين، كما تناولت الأضداد، من خلال التعريف بها عند الأصوليين واللغويين، وموقف اللغويين منها، وأسباب وقوعها، كما تناولت الترادف، وموقف اللغويين منه .

الخـــاتمة : وقد تضمَّنت عرضا لأهم النتائج التي تمَّ التوصل إليها في هذا البحث، بالإضافة إلى ما أُدْرِج في ثنايا الفصول .

وأمَّا عن مصادر البحث ومراجعه، فقد تنوّعت بين القديم والحديث بالإضافة إلى المراجع الأجنبية، وكان جلُّ الاعتماد – في المقام الأول – على المصادر العربية القديمة، مثل: الكتاب لسيبويه، وشرح المفصل لابن يعيش، بالإضافة إلى مصادر علم أصول النحو الأخرى مثل الإنصاف في مسائل الخلاف، ولمع الأدلة لأبي البركات الأنباري، والاقتراح في علم أصول النحو للسيوطي .

أمّا عن المراجع الحديثة التي اعتمدت عليها هذه الدراسة، فمنها: "الأصول: دراسة أبيستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب"، و"اللغة العربية معناها ومبناها"، وهما مؤلفان للدكتور تمام حسان، و"أصول التفكير النحوي" للدكتورعلي أبو المكارم، و"النحو والدلالة"، للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، و"التفكير اللساني في الحضارة العربية" للدكتورعبد السلام المسدِّي، وغير ذلك من المؤلفات على نحو ما هو مبيَّن في ثنايا البحث وقائمة المصادر والمراجع .

وفي النهاية لا يسعني إلا أن أتقدم بخالص شكري وامتناني لأستاذي المشرف الأستاذ الدكتور ناصر علي عبد النبي لِمَا أسداه إليّ من توجيهات ونصائح كان لها أثر عظيم وفوائد جمَّة في وضوح الرؤية المنهجية، والتناول النظري والعملي لهذا الموضوع بالإضافة إلى ما بذله من جهد في إعادة تنظيم هذا البحث، ومتابعته لحظة بلحظة، وإرشادي إلى مواطن الخلل لتداركها، فشكر الله له، ونفع به، وأحسن إليه.

كما أتوجّه بالشكر والتقدير للأستاذ الدكتور سامح محمد عمر لتفضّله بقبول الإشراف على هذا العمل، وتجشُّمه عناء قراءته، وتكرّمه بتوجيه النصح والإرشاد لتقويمه، فجزاه الله عنّي خير الجزاء.

أدعو الله تعالى أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة، فإن أكن كذلك فذلك فضل الله، وإلا فحسبي أنِّي أخلصت النية، وبذلت الجَهْد، فاللهَ نسألُ أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .